الاعتذار عن الفرار من الحرب في الشعر الجاهلي

إعداد

د / محمد ساري عبد دار الديك

أستاذ مساعد في الأدب القديم

رئيس قسم اللغة العربية جامعة فلسطين الأهلية

بيت لحم، فلسطين

تاريخ الاستلام: ٢٠٢١/٥/٢٦م

تاريخ القبول: ٢٠٢١/٦/١٦م

ملخص:

لقد سعى هذا البحث إلى دراسة غرض مهم من أغراض الشعر العربي ؛ألا وهو الاعتذار عن الفرار من الحرب في الشعر الجاهلي معتمدا المنهجين الوصفي والتحليلي، فقد توقف الباحث على المعنى اللغوي للاعتذار والتطور الدلالي للكلمة والمعنى الاصطلاحي الذي لم يبتعد عن المعنى اللغوي ودار في فلكه، وكذلك الأمر بالنسبة للفرار لغة واصطلاحا. وتحدث الباحث عن الحياة العربية التي لازمتها الحروب وشكلت ظاهرة بارزة فيها لأسباب اجتماعية واقتصادية، والكشف عن موقف العرب منها إحجاما وإقبالا، وتناول الباحث ظاهرة الفرار والكشف عن أسبابها وبيان مسوغات الفرارين المتمثلة في الخوف من الموت أو الأسر، وتطرق الباحث إلى موقف الرافضين لهذا التصرف من داخل القبيلة الذين عدّوه سبة وعارا يجلب الذّل والمهانة ويتخذه الأعداء مادة خصبة للهجاء والتفاخر عليهم .وتناول الباحث الاعتذار وبين قيمته الاجتماعية والأخلاقية وما له من وظائف نفسية، وكشف قلته واقتصاره على فئة من الشعراء اتسمت بالشجاعة والمراس في الحرب، ولها رصيد من الانتصارات والبطولة، وكانت مضامينه تتلخص في طرح المسوغات التي ترفع عنهم اللوم والحرج، وتؤسس لأعمال حربية قادمة لرد الاعتبار .

الكلمات المفتاحية: الشعر الجاهلي، الفرار، الاعتذار.

Abstract:

This study investigates an important purpose of Arabic poetry, namely, the apology for fleeing war in Jahuli Poetry, using the descriptive and analytical approaches.The researcher studied the linguistic meaning of the apology, the semantic development of the word and the idiomatic meaning that did not deviate from the linguistic meaning. The researcher also talked about the Arab life that was beset by wars and constituted a prominent phenomenon in it for social and economic reasons, revealing the position of the Arabs towards it with reluctance and turnout.The researcher also dealt with the phenomenon of desertion, revealing its causes, and explaining the justifications for fleeing, represented by fear of death or capture. In addition, the researcher studied the attitudes of those who reject this behavior from within the tribe, who considered it an insult and a disgrace that brings humiliation, and the enemies make it fertile material for satire and bragging them. Finally, The researcher dealt with the apology and its social and moral value and its psychological functions, and revealed its scarcity and confined it to specific poets characterized by courage and intransigence in war which also has a credit of victories and championship. The topics of the fleeing war poetry present the justifications that would relieve them of blame and embarrassment, and plan to start upcoming wars to restore honor.

Key words: Jahili Poetry, fleeing, and apology.

المقدمة:

تحدثت في هذا البحث عن غرض مهم من أغراض الشعر الجاهلي؛ ألا وهو شعر الاعتذار عن الفرار في الحرب فبحثت في معنى الاعتذار لغة واصطلاحا، وكذلك عن معنى الفرار، وتحدثت في ظروف الحياة العربية التي جعلت من الحرب ظاهرة نافرة لديهم كاشفا عن دوافعها وموقف العرب منها إقبالا وإحجاما، وتوقفت على الفرار والآراء المتعددة فيه من الفرَّارين أَنفسهم ومن داخل القبيلة وتعرضت لإظهار أَسبابه، وموقف الخصم منه، ثم توقفت مع الاعتذارموضحا قيمته وأَهميته ووظيفته وقلته واقتصاره على فَئة من الشعراءِ، تم تناولت أَنماطه ومضامينه. وكان المنهج الوصفيّ التحليلي القائِم على اختيار النصوص وتحليلها هو المنهج الأَنسب لهذا البحث، وأَخيراً فقد ذيلت البحث بمسرد للمصادر والمراجع التي اعتمدتها وأَفدت منها في البحث .

الاعتذار لغة واصطلاحا

الاعتذار لغة:

الاعتذار: وزن افتعال مصدر من العذر ، بمعنى إظهار العذر وطلب قبوله[١]. والعذر هو الحُجة التي يعتذر بها، وقيل: هو تحري الإنسان ما يمحو به ذنوبه، ومن اعتذر شاب اعتذاره بكذب يعفي على ذنوبه[٢]. وفي الأصل إزالة الشيء عن جهته،يقال اعتذر إلى فلان فعذره: أي أزال ما كان في نفسه عليه في الحقيقة أو في الظاهر[٣]. ويرى ابن رشيق القيرواني أن في اشتقاق الاعتذار ثلاثة أقوال:

أحدهما: أن يكون من المحو، كأنك محوت آثار الموجدة، ومن قولهم: اعتذرت المنازل إذا درست، وأنشدوا قول ابن أحمر:

أم كنت تعرف آيات فقد جعلت أطلال إلفك بالودكـــاء تعتذر

والثاني :

أن يكون من الانقطاع، كأنك قطعت الرجل عما أمسك في قلبه من الموجدة، ويقولون: اعتذرت المياه إذا انقطعت. وأنشدوا للبيد:

شهور الصيف واعتذرت إليه نطاق الشيطين من السماء

والقول الثالث :

أن يكون من الحجر والمنع... قال أبو جعفر: يقال عذرت الدابة أي جعلت لها عذراً بحجزها من الشراد، فمعنى اعتذر الرجل احتجز، وعذرته: جعلت له بقبول ذلك حاجزاً بينه وبين العقوبة والعتب عليه، ومنه تعذر الأمر احتجز أن يفضي، ومنه جارية عذراء"(٤).

ونخلص إلى أن هذه المعاني الثلاث كلها تعمل على التوفيق بين المعنى الدارج المعروف لكلمة الاعتذار المتمثل في التماس العذر من خلال محاولة الإنسان إصلاح ما أنكره عليه الآخرون من أفعال أو تصرفات خالفت المتعارف عليه بتسويغ أو فعل يثبت به خلاف ذلك والمعنى اللغوي القديم المتمثل في المحو والانقطاع والمنع.

الاعتذار اصطلاحا

أما المعنى الاصطلاحي للاعتذار، فقد عرّفه الجرجانيّ بأنه "محو أثر الذنب"(٥). وعرفه الشريف المرتضى بقوله: " هو إظهار الندم على الإساءة إلى الغير"(٦). وجاء عند الكفوي هو "إظهار الندم على ذنب تقرّ بأن لك في إتيانه عذراً"(٧). وقال المناوي: الاعتذار هو "تحري الإنسان ما يمحو أثر ذنبه"(٨) .

وبعد استعراض هذه التعريفات نلاحظ أن المعنى الاصطلاحي للاعتذار لا يختلف عن المعنى اللغوي ولا يبتعد عنه كثيراً، فهو يراوح ما بين إظهار الندم والبحث عن شيء يمحو به أثر فعلته وتصرفه أو ما نسب إليه من أمر مستنكر.

الفـــرار

معنى الفرار لغةً واصطلاحاً:

الفرار لغةً : "فر يفرُ فرارا: هرب"(٩). "والفر والفرار: الرّوغان والهرب من كل شيءٍ خافه"(١٠). "وفر فلان يفرُّ فراراً إذا هرب، وأفررتهُ أفرهُ إذا عملتُ ما يفر منه، ورجل فرور وفرورة وفرار غير كرار"(١١).

أما اصطلاحا فلم أجد تعريفا له، واجتهد في تقديم تعريف له : فهو لجوء الإنسان إلى الهروب والروغان من ساحة المعركة طلبا للنجاة ودفع الأذى عن نفسه نتيجة حالة انكسار معنوي ومادي تصيبه نابعة من فيض عميق من مشاعر الخوف الشديد التي تسيطر عليه وتتملك مشاعره وأحاسيسه. ونلاحظ أن المعنى اللغوي يدور حول الهروب وتولية الأدبار وأن المعنى الاصطلاحي لا يبتعد عنه بل يدور في فلكه.

الفـــــرار

لقد شكّلت الحروب والصراعات مظهراً من مظاهر الحياة العربية القديمة، وقد لازمت حياتهم في كافة جوانبها ومناحيها لوجود أسبابها ومقوماتها المتمثلة في الصراعات الاقتصادية والاستئثار بمصادر الرزق حفاظاً على البقاء وبخاصة أنهم يعيشون في رحاب بيئةٍ قاسيةٍ شحيحة الرزق ضنينة الخيرات التي قلما كانت تسد حاجاتهم ورمق حياتهم وعيشهم(١٢). فضلاً عن أسباب وعوامل اجتماعية تجسدت في الأخذ بالثأر وعدم الاكتفاء بالقاتل والتعميم على أفراد القبيلة كلها مما يوسع دائرة الصراع ويؤجج المواقف ويطيل أمد الخلافات والنزاعات(١٣). عدا عن أسبابٍ أخرى عديدة كالنهضة لحماية الجار وإجارة الدّخيل والنّفرة من العار والعصبية القبليّة والاعتزاز بالقرابة والمفاخرة والمنافرة والإباء والشمم(١٤) .

وفي كل زمان وعصر من العصور، وأي مكان كانت الحروب، وما دامت موجباتها قائمة كالتسابق على المصالح والأهداف والرغبة في السيطرة والتوسع وبسط النفوذ والاختلاف في الآراء والأفكار وتباين الطبقات والفوارق الاجتماعية وهذه كلها أمور طبيعية لا يمكن للحياة أن تسير من دونها أو يخلو المجتمع منها، وبهذا غدت الحرب عادةً وأسلوب حياة درج عليه الناس في ظلال مجتمع تسيره الأعراف التي تمجد القوة وتعلي من شأنها فغدت الحرب لديهم موضع تعظيم وإجلال ،وكثر الحديث عنها والاستعداد لها ، فقد تحدث الشعراء عنها وأفاضوا في ذكرها في معرض الحديث عن البطولة والشجاعة وسرد المفاخر واستعراض القوة حتى أننا لا نعجب أو نستهجن أن

نرى "معظم قصائد العصر الجاهلي أو كلها لم تخلو واحدة منها من الحديث عن الحرب أو ما يتصل بها "[١٥].

"وهذا لا يعني أن العرب كانوا من طبيعتهم وديدنهم يسعون للحرب من أجل الحرب ذاتها فهذا مخالف للطبيعة السوية وللفطرة ، بل كانوا كارهين لها ويسعون لتجنبها بقدر حماسهم واستعدادهم لخوض غمارها إذا ما اقتضت الضرورة وأملت عليهم ظروفهم، بدليل أنهم وصفوها بأبشع الأوصاف وأقبح الصفات ونعتوها، وصوروها بالصور المهولة كاشفين ما تخلفه من دمار وويلات ومصائب لا ينجو منها أحد "[١٦] .

إن كره الحرب وحب السلم مسعى لكل إنسان غريزة جبل عليها لذا ينأى عن كل ما يهدده ويبتعد عن كل ما يؤذيه وينهي حياته فالنفس السوية لا تقدم على الهلاك حبا في الحياة وتعلقا بها، يقول تعالى: {كتب عليكم القتال وهو كره لكم }[١٧]، ولم يكن الجاهلي غريبا عن هذا الأمر إذ كان متصالحا مع الحياة محبا لها ومقبلا عليها، يقف مفكرا قبل الدخول في الحرب ، يقدر الموقف ويتصور ما ستكون عليه النتائج وبناءً على ذلك يقدم أو يتراجع لأن الحرب مسألة حياة أو موت، وهذا ما حصل مع كبار أبطالهم ومضرب أمثالهم في "الشجاعة والبطولة والفروسية والإقدام ،يقول عنترة بن شداد [١٨].

إذ يتّقون بي الأسنّة لم أخم عنها ولكنّي تضايق مقدمي

قالوا: فدلّ على أنه وقف ولم يقدم، واعتذر بتضايق المقدم ، وكان هذا الثاني موقفاً يتيح للعقل رجاحةً ويسمح للخلق سيادة ليسلك سبيل الرشاد والسلام. وربما، لما كان من رزانته وكياسته، قال فيه رسول صلى الله عليه وسلم: "ما سمعت بأعرابيٍّ فاشتهيت أن أراه إلا عنترة".

وقد يشير شاعر آخر إلى حال توازن نفسي حقيقي، كما في أبيات عمرو بن معديكرب الزبيدي وهو معدود في شجعان العرب المشهورين، يقول[١٩].

ولقـد أجمع رجــليَّ بهـــــا حذر المـــوت وإنِّـي لفــرور

لقـــــد أعطفـهـــــا كـــارةً حين للنفس من الموت هــرير

كل مـــا ذلك منـــي خلـــق وبـــكل أنا فـي الروع جــديـــر

وقد ذكر نفسه، ذكر حال فراه ،وحال ثباته فحال الثبات قوله: "ولقد أجمع رجلي بها".

والحال الأخرى للفرار إذا كان ذلك أحزم، وإنما دل على أصالته وعقله في ثباته وقت الثبات وفراره ساعة الفرار، وليس الشجاعة أن يحمل الرجل نفسه على الهلكة إنما ذلك هوج، والشجاعة أن يتقدم وغالب ظنه أن يظفر، فأما إنه علم إذا أقدم هلك، فأن ذلك جنون ؛ لأن كل أحد يقدر أن يقدم على الهلكة فيهلك، وإنما الشأن في أن يحمد غب إقدامه وقريب من ذلك قوله[٢٠] :

فجاشت إليَّ النَّفس أوَّل مـرَّة فرَّدت على مكروهِها فاستقرَّت

فما جاشت نفسه إلا وجبن ولو وصف عمرو هذه الأشياء قيل :"إنه مما يصدق عن نفسه على أنه ربما كذب الكذبة الصلعاء"[٢١]. وهذا موقف حكيم صادر عن روية وتأنٍ في تقدير الأمور والنظر بعين العقل في ما سينتج منها من عواقب ويترتب عليها من نتائج دفعاً للمكروه تجنباً للشر حفاظاً على الحياة وصونا لها من التلف كونها أعز وأثمن ما يملك الإنسان لأن الإقدام دون حسابات وتفكير يعد تعجلاً يفضي إلى التهور الموصل إلى التهلكة وهو بخلاف الشجاعة التي هي سمة محببة ممدوحة مقيدة بالحفاظ على الروح من التلف أو الوقوع فيما هو أسوء ألا وهو الأسر.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد من التريث والتفكر في اتخاذ القرار الصائب للدخول في المعركة من عدمه بل أنه تعدى ذلك إلى الفرار من سوح الوغى وغمرة القتال عندما يسود العقل ويتغلب المنطق ويسيطر على وعي الإنسان حب الحياة والحفاظ عليها على الموت.

فكان الفارس إذا ما وجد نفسه تحت وطأة الموت وسنحت له الفرصة للنجاة لا يتردد في اغتنامها ويصبح ما كان عيباً وعاراً فخراً يعتز به لقدرته على الإفلات من خصومه والفوز بالحياة وقد أرجع دكتور د . مصطفى سويف ذلك إلى الميل لدرء الموت حين يتخلى الشاعر "عن عصبيَّته الحربيَّة مستبدلاً بها خوفاً عميقا فتسود لديه آلية الفرار"[٢٢]. وقد أعطى الفرارون أنفسهم رخصة أو إجازةً بالفرار مرةً واحدةً على أن لا يصبح عادةً وسلوكاً معروفاً عنه ، يقول عتيبة بن الحارث بن شهاب[٢٣] :

نجيت نفسي وتركت حزرة نعم الفتى غادرته بثبرة
ليس يسلم الحر الكريم بكره وهل يفر الشيخ إلا مرة

وإنَّ على الرجل أن لا يفرَّ إلا إذا اضطر قسراً ووجد نفسه واقعا في الهلاك ولا نجاة منه، يقول أبو خراش الهذلي[٢٤] :

لحى الله جداً راضعاً لو أفادني غداة التقى الرَّجلان في كفِّ ساهك
فإنْ تزعما أنِّي جَبنتُ فإنَّني أفرُّ وأرمي مرَّة كل ذلك
أقاتل حتَّى لا أرى لي مقاتلا وأنجو إذا ما خفت بعض المهالك

ويجب أن لا تسقط هذه الفرَّة تاريخ الرجل البطوليّ الطويل ولا تنتقص منه ولا تأثر على صورته، يقول عمرو بن معديكرب[٢٥] :

وليس يعاب المرء من جبن يومه إذا عرفت منه الشجاعة بالأمس

وقد احتفظت دواوين الشعر العربي بعدد وافر من حالات الفرار دون أن يرى فيها أصحابها حرجاً أو انتقاصاً من هيبتهم أو النَيل من عزَّتهم أو جرحا لكرامتهم ،وقد تسابقوا في عرض صور فرارهم بشكل علني عارضين تلك الصور كمفاخر تحمل اعتزازهم بالنجاة وكأنهم في حال سباق يظهر فيه كل واحد منهم ما تميَّز به أسلوبه وطريقة هربه عن الآخر، محمِّلين تلك الصور مسحةً من الروح الهزليّ والسخرية والصور المضحكة.

وكان الإحساس بالخوف من الموت أو الوقوع في الأسر هو الباعث والمحرك للهروب والنجاة من ساحات المعركة ، يقول ابن عبد الله أخو صخر الغي يذكر فرَّة كان فرَّها ،فيصف بأن فراره متميز فلا يقدر القيام به بعض الرجال، وكأنه يتطلب مهارات خاصة ومعايير محددة وملكات غير متوافرة لدى الجميع ، يقول[٢٦] :

فلا وأبيك لا ينجـو نجـــائي غداة لاقيتهم بعـض الرجـــال

هواء مثــل بعلك مستمـــيت على ما في إعائـك كالخيـــال

أما مالك بن الحارث فإنه يصف فراره وهروبه الذي لا يمكن أن يتأتى لأحدٍ في ذلك الموقف المهيب من الأحياء إلا لمن له جناحان، وهو هروب خارق للعادة، علما أنه التقى بخصمه وهو في عدة الحرب الكاملة، ولم يقدم على فعل شيء إلا الفرار، يقول [٢٧]:

فلا ينجو نجائي ثم حـــيٌّ من الحيـــوان ليس له جناح

على أنِّي غداة لقيت قسـراً لم أرمهـــم وقد كمل السلاح

وقد فرَّ أبو خراشة من أمام بني نفاثة بعد أن رآهم وقد حملوا سيوفهم فأحس بالموت وتشممه فأصيب بالذعر وولى هاربا لا يخاف العثار وقد ألقى عنه ثيابه حتى يخف ويشد في الهرب، وكان في هروبه أسرع من حمار وحش ضامرٍ، يقول[٢٨] :

لمـا رأيت بنـــي نُفاثـةَ أقبـلوا يُشْلـــون كـلَّ مقلِّص خنَّاب

فَنَشِيت ريح الموت من تلقائهمْ وكرهـــت كـلَّ مـــهنَّدٍ قضَّاب

رفـعت ساقا لا يـــخاف عثارها وطرحـــت عنّـِي بالعراء ثيابي

أقبـــلت لا يشد شـــدي واحـــد علج أقـب مـــسير الأقـــراب

ويذكر حصيب الضمري فرته من أمام بني عمر بعد أن تأكد منه وعرفهم وتيقن أنهم قادمون للانتقام منهم فتشمر وأسرع كأنه حمار وحشي وحيد في المطاردة

ناجيا بنفسه إلى السهل وقد تقددت ثيابه وتمزعت من شدة العدو نادبا نفسه بأن لا نجاه له من هذا الموت المحدق إلا الفرار، يقول[٢٩] :

لما عرفـــت بني عمرو ويازعهـم أيقنت أنِّي لهـــم في هـــذه قود

رفعت ثوبـــي لا ألوي على أحـــد كما تلفَّت علج العانـــة الوحـــد

أنجو إلى السهل لا أنجو إلى أحـد كأنَّ ثوبي ممـــا ازدهـــي قـــدد

يا لهف نفسي ولهـف غير مجدية شيئاً وما عن قصـــاء الله ملتحد

وفر عمير بن الجعد من بني لحيان يوم حشاش وقد قتل أصحاب ولم يبق إلا هو وقد رأى حمأة المعركة وتيقن من الموت المحقق فأدرك أن لا شيء ينجيه منهم إلا الركض الشديد، وأن تتعاضد كل قواه في سبيل ذلك فأطلق العنان لساقيه اللتين حملاته بسرعة فائقة ، فكأنه في عدوه أتان، يقول[٣٠] :

أيقنت أن لا شيء ينجي منهـــم إلا تـغاوث جـــم كلِّ وظيـــــف

رفعت رجلا لا أخـــــاف عثـــارها ونجوت من كثـــبٍ نجـاء خذوف

وفر حبان بن الحكم السلمي، وكان يلقب بالفرار، من أمام بني عوفٍ بعد أن رأى وسمع إعلانهم موت أحد رجالهم وتأكد أن الخطر محدق به فأطلق العنان لفرسه وزجرها لتنطلق بسرعة طلبا للنجاة، يقول[٣١] :

لما رأيت بني عوفٍ وخيلهـــــم ينعـون بشراً دعاء غير تهليل

زجرتها ثمَّ قدمـــــت العنان لهـا كأنَّهـــا خوط بانٍ جف مطلول

أثقلتها الخل لا ألوي على أحـــدٍ ولا يبين لهم زجري ولا قيلـــي

إن ما سبق استعراضه وطرحه من أقوالٍ تمثل وجهة نظر الشعراء الفرارين الذين ازدحمت في نفوسهم رغبتان نقيضتان، هما: الإقدام والصبر وانتظار المجهول،

فإما الموتوالأسر أو الهرب والنجاة والسلامة التي تجلب الذل والعار، فكان خيارهم المر ترك القتال والانسحاب من المعركة مؤثرين الحياة على الأسر، ونلاحظ أن الفرار بالنسبة إليهم كان تصرفاً يعتز به وضربا من ضروب البطولة والشجاعة وتصرفاً حكيماً لأنه مكنهم من الإفلات من خصومهم والنجاة من الموت المحقق أو الأسر المؤكد، وإذا كان هذا رأيهم فإن هناك أصواتا وآراء من داخل القبيلة تستنكر هذا الفعل وترفضه وتدينه وتعده خزايةً وعاراً وليس طريقاً سوياً للسلامة، لأن جرائره كبيرة ونتائجه مريرة، منها وقوع النساء سبايا بأيد الخصم فالموت تحت ظلال السيوف خير وأفضل، يقول عمرو بن معاوية التغلبي[٣٢]:

بني تغلب إن الفرار خزايـــــة ... وليس امرؤ هاب الحمام بآيل

فاحموا عن أحسابكم بسيوفكم ... فللموت خير من سباء العقائل

أما المرأة فكان لها دور مميز ذو فاعليةٍ في معارضة الفرار ورفضه وعدم قبوله فهي تخرج مع المحاربين وتنشدهم وتحمسهم وتشد من أزرهم وترغبهم في الإقبال على القتال محذرة من مغبة الفرار والهزيمة فهن لهم إن تحقق النصر على الخصوم، وأما إن هزموا فهن مفارقات ،تقول امرأة من بني عجل يوم ذي قار[٣٣] :

إن يظفـــر يحرزوا فينـــا الغرل ... إيهـــا فـــداء لكم بني عجـــل

وتقول أيضاً [٣٤]:

إن تهزموا نعانق ونفرش النمارق ... أو تهربوا نفارق فراق غير وامق

وكانت المرأة تلقي اللوم والعتاب على زوجها إذا هرب من المعركة فقد فر عمر بن جعدة الخزاعي وعمير بن جعدة من بني لحيان يوم خشاش فلامته امرأته فقال[٣٥]:

صدفت أميمة لا ت حين صدوف ... عني وآذن صحبتي عني بخفوف

أأميم هل تدرين كم من صاحـــبٍ ... فارقت يوم خشاش غير ضعيف

وفرَّ تميم بن الأسد الخزاعيَّ من بني نفاثة فلامته امرأته لتركه أخاها وقد قتل، فقالت[٣٦] :

لامت ولو شهدت لكان نكيرهـــا بول يبـــل مجـــامع القبـــقاب

الله يـــعلم مـــا تركـــت منبهـــاً عن طيب نفسٍ فاسألي أصحابي

وكانت المرأة تستنكر على زوجها أن يعود سالماً دون قومه وتعد ذلك عيبا وخزياً.فقد غزت بنو ضمرة ابن بكر بني جشم بن عمر بن الحارث بن تميمم بن سعد بن هذيل فنذروا بهم وخرجوا في آثارهم فقتلوهم إلا حصيباً الضمري وأنه أفلت شداً. فلما رجع لامته امرأته وعيرته ،فقالت "أراك صحيح الجلد وقد أصيب قومك !"فقال[٣٧] :

قالت خليدة لما جئت طارقهـــا هذا حصيب صحيح الجلد لم يصب

ماذا لها حلفت في أن تخوفني بيـــض مطارد قـــد زين بالعقب

إن إحساس الشاعر بالخجل الذي يحزّ في نفسه يزعجه ويقلقه إدراكاً منه أن الفرار خيانة للنفس والقبيلة، وخيبة أملٍ لمن بنوا آمالا عليه ووضعوا ثقتهم فيه، لذا يعمل جاهداً ما استطاع أن يخفيه أو يتخلص من عذابه ولكنه لا يستطيع ولا يمكنه ذلك، فيعمد إلى إظهاره بشكل لومٍ وعتاب من الزوجة التي تقرعه وتوبخه على فعلته، وهذا الأمر كثر من الشعراء الذين فروا من المعارك فعمدوا إلى طرح هذا اللوم الذي من شأنه أن يخفف عنهم ما يعتمل في نفوسهم من ندم كنوع من التنفيس والترويح عن قهرهم، وكأن المرأة تمثل ضمير الشاعر الذي لم يكن راضياً أو مقتنعاً بفعلته ويبقى يأنبه ويجدد عليه مواجعه ،أو أن المرأة هي صوت القبيلة التي عليه أن يبرأ لها ساحته ونفسه أمامها ، ويرى د. إحسان عباس أن القبيلة "لا تعير أبطالها بالفرار من الحرب إذا يئست من الانتصار لأن النجاة والاستعداد لحربٍ جديدة أجدى من فقدان أبطالها ... ولو كان الفرار عاراً محضا لسقط شأن طفيل بن مالك فارس قرزلولتبددت زعامة عامر بن الطفيل الذي فرَّ في أربع معارك أو أكثر"[٣٨] .

وهذا الأمر ليس صحيحاً دائما فهناك استثناءات بدليل وجود أصوات تندد بالفرارين وأفعالهم ثم أن كثيرا منهم يملكون السطوة والقوه والسيطرة داخل قبائلهم فلا أحد يجرؤ على مكاشفتهم والاعتراض على فرارهم لكن حينما تأتي الفرصة والوقت المناسب ويكون هناك متسع من حرية القول نجد أفراداً من القبيلة يعبرون عن رفضهم وغضبهم عن هذا حال، جاء في المحبر أن "رسول صلى الله عليه وسلم قال لبني سليم: "اجعلوا رأسكم على ما كانت في الجاهلية، وقودوا عليكم من كان يقودكم في الجاهلية "فقام رجل من بني سليم فقال: يا رسول الله كان يقودنا الفرار بن الفرار. فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كرهها. فأعادها عليهم فقال السلمي هذا الكلام ثانية. فرده إليه الثالثة فقال: كان يقودنا حبان بن الحكم"[٣٩] .

ففي هذا الخبر دلالة قاطعة أن الفرار لم يكن مقبولاً ومن الصعب نسيانه أو التهاون مطلقا مع فاعليه ولم يغتفر لمن صدر منه أو مسامحته على ذلك. أما الفرار بالنسبة للخصم فيتخذه مادة خصبة ومجالاً فسيحا رحبا للطعن والذم فيكيل لخصمه المثالبوالمساوئ فينعته بالجبن والذل وخور العزيمة وعدم الشجاعة ويسمه بميسم العار ويجرده من الشرف والكرامة والرجولة والنخوة وكل ما يتصف به الأبطال، فقد هجا عنترة قبيلة بني ضبة وعيرهم بالهزيمة وتركهم نساءهم خلفهم فمنهن المرضعات وحديثات الولادة والحوامل وهذا سبة وعار كبير[٤٠]:

فخلوا لنا عوذ النساء وجببـــوا عباديد منهم مستقيم وجامـــح

وكلّ كعابٍ خذلة السّاق فخمـة لها منصب في آل ضبَّة طامح

تركنا ضرارا بيـــن عانٍ مكبّـلٍ وبين قتيل غاب عنه النوائـــح

وعمراً وحيـــّاناً تركنا بقفـــرةٍ تعودهما فيها الضَّباع الكوالح

يجررن هاماً فلقتـــه سـيوفنا تزيل منهن اللحى والمســالح

وكما هجا عنترة بني زبيد فرماهم بالضعف والخوف وعدم الصبروسخر من هربهم وقد ولوا الأدبار والرماح تلاحقهم وتصيبهم في ظهورهم وتنال منهم نيل النار في اجتياحها الهشيم، يقول[٤١] :

لقد وجـــدنا زبيداً غير صابرة يوم التقينا وخيل الموت تستبـــق

إذ أدبروا فعملـــت في ظهورهم ما تعمل النار في الحلفى فتحترق

أما بشر بن أبي خازم الأسدي فيهجو كلاً من قبائل الربابوالنمير وبني كلاب وسليم وأشجع، وقد ساق لكل قبيلةٍ عددا من المعايب مذكراً أن قبيلته بني أسد هي الأكثر شجاعةً وإقداماً وتفوقاً ،ذلك أن النُميريين فضلوا الفرار من ساحة المعركة وقد تبعتهم في ذلك بنو كلاب، أما سليم فقد أصابها الفزعُ وتلبسها الذعر من هول المشاهد وما رأوا من قوة بني أسد، وأما قبيلة أشجع فقد حقرها بجعلها بين الذكورة والأنوثة (خنثى)، يقول[٤٢] :

وبدلت الأباطـــــح من نميرٍ سنابك يستثار بها الغبـــــار

وليس الحـــي حـــي بني كلابٍ بمنجيهم وإن هربوا الفـــــرار

وقد ضمزت بحرتهـــا سلـــيمُ مخافتنا كما ضمز الحمـــــارُ

وأما أشجـــع الخنثـــى فولوا تيوساً بالشظي لهـــا يعـــار

وعندما ألحقت بنو أسد الهزيمة ببني عامر يوم النسار هجا بشر بن أبي خازم الأسدي العامريين فعاب عليهم تركهم النساء المرضعات سبايا لديهم وقد عانين الخوف الشديد والفزع الذي لا مثيل له من المصير المعيب الذي وقعن فيه، يقول[٤٣] :

بنـــي عامر إنـــا تركنا نساءكـــم من الشل والإيحاف تدمى عجوبها

عضاريطنا مستنبطو البيض كالدمى مـــدرجة بالـــزعفـران جيـــوبـها

تبيـــت النســـاء المرضعات برهوةٍ تـــفزع من جوف الجنان قلوبـها

كما هجا بشر بني تميم وقائدها حاجب بن عدس بن زرارة يوم الجفار عائباً عليه الفرار، ولولا سرعة فرسه التي تشبه العقاب لما أفلت من رماحهم ،يقول[٤٤] :

وهم وردوا الجفار على تميـــمٍ بكل سمـــــيدع بطـلٍ نجـيب

وأفلت حاجب تحت العوالـــــي على مثــل المولعــة العقـــاب

وهجا عبيد بن الأبرص امرأ القيس بن حجر وعيره بالفرار من المعركة التي قتل فيها أبوه، فلولا فراره للقي المصير نفسه فهو أضعف من أن يصمد، ومن كان مثله يرتضي من غنيمة الحرب بالسلامة والنجاة، فهو لا يحسن الحرب والقتال وإنما اللهو والشرب والبكاء يقول[٤٥] :

وركضك لولاه لقيت الـذي لـقوا فذاك الذي نجاك مما هنـــالك

وأنت امرؤ ألـــهاك زق وقيـنـــة فتصبح مخموراً وتمسي متاركا

عن الوتر حتى أحرز الوتر أهله فأنت تبـــكي إثـره متـهالـــكا

وهجا مقاس العائدي امرأ القيس بن بحر الكلبي معيراً إياهُ بالفرار وأنه لولا ذلك لأدركه الطعن وسالت دماؤه أو وقع أسيراً، يقول[٤٦] :

فو الله لو أن امرأ القيس لم يكن بفلجٍ على أن يسبق الخيل قادرا

لقاظ أســـيراً أو لعالج طعنـــةً ترى خلفه منها رشاشاً و قاطـرا

وقد صور الشعراء خصومهم الفارين من المواجهة نتيجة الخوف والحرص على الحياة بصورٍ استثنائية غير واقعية من حيث سرعةِ فرارهم وعدم القدرة على اللحاق بهم ومطاردتهم، وكل الفضل في ذلك عائد إلى خيلهم التي لولا سرعتها لوقعوا قتلى أو أسرى، لذا وجب عليهم حفظ جميلها والاعتراف بفضلها وشكرها، وهذا إمعان في تهوين شأنهم ومبالغة في تحقيرهم، يقول سلمة بن الخرشب في وصف فرار العامريين وسرعة خيلهم[٤٧] :

فلو أنهـــا تجري على الأرضِ أدركت ولكنها تهفو بتمثال طائرِ

فاثني عليهـــا بالذي هي أهله ولا تكفرنـــها لا فـــــلاح لكـــــافر

الاعتـــــــــذار

الاعتذار خلق رفيع وقيمة اجتماعية راقية، وفضيلة نفسية سامية وسلوك إنساني قويم يضفي على صاحبه الصدق ويعطيه احترام الآخرين، وهو دليل قوة إرادة، وتعبير عن الثقة بالنفس التي لا يمتلكها إلا أصحاب النفوس العالية التي تفيض ثقة وشجاعة خلافاً لذوي النفوس الضعيفة، والاعتذار بيان الإنسان عن أسفه وكشفه عن ندمه وامتعاضه وعدم رضاه عما بدر منه من سلوكيات ومواقف خالفت المألوف، ويسعى من خلاله تقديم مسوغاته التي ألجأته إلى فعل ذلك بأسلوبٍ ملائم بما يقدمه من حججٍ يقنع بها الآخرين الذين لاموهوعابوه. إن تقديم الإنسان أعذاره عما قصر فيه دليل قاطع على الإحساس بالندم وتعهدٍ بعدم تكراره،وفي الحقيقة هو نوع من دفع الأذى عن النفس الناجم عن جريرة خطأ ارتكبه أو أذى يستشعر به جراء نفور الآخرين منه، لذا يحمل الاعتذار وظيفة أخلاقية تكمن في دعوة الإنسان إلى التخلص من الأذى ومحاسبة النفس عما يأتيه من أعمال معيبة ومحاولة تقديم صورة مختلفة للآخرين[٤٨].

وعلى الرغم من كثرة الحروب والمعارك والأيام التي شهدتها حياة العرب في الجاهلية، وما تحقق فيها من انتصارات وهزائم وفرار ووجوه تقصيرٍ وأخطاء ،إلا أننا لا نجد شعراً في الاعتذار يتناسب وحجم الشعر الحربي وما يستوجب الاعتذار عنه من قصورٍ وهزائم[٤٩].

إنَّ سبب ذلك يكمن في أن الاعتذار لا يتفق وطبيعة العربي الذي يعتز بنفسه وكرامته ويتصف بالإباء والكبرياء وطغيان الغرور والزهو عليه، وما جبلت عليه نفسه المستعلية الفخور من صلابةٍ وقساوة "ويحب أن يشاع عنه القوة والكمال والصواب والبعد عن الخطأ على الدوام فلم يرض أن يسجل على نفسه اعترافاً بالتقصير، قد يكون قريباً من المعقول، خصوصاً إذا علمنا أنَّ الشعر كان كثير التداول، سريع الانتقال كما

كان يعتبر سجلاً خالداً لحوادثهم[٥٠]، لذلك من الطبيعي أن يتجاهل الاعتذار ويعرض عنه لأن ذلك من وجهة نظره وقناعته تثبيت وتوكيد لما يقال عنه من تهمٍ يحاول نسيانها، وليس من السهل عليه الاعتراف بها، وما كان له أن يقدم على ذلك إلا مضطر تحت تأثير وضغوطاتٍ ملحة دفاعاً عن نفسه أمام من يعيرونه من أعداءٍ وخصوم أو منافسين قاصدين الحط من مكانته وكشف عيوبه وعثراته ،فيأتي الاعتذار رد اعتبارٍ لنفسه ودفاعاً عن كرامته وقوته وتاريخه الحافل بالبطولات والأمجاد والانتصارات والمواقف المشرفة في حوادث عديدة ومواقع مشهودة .وأكثر شعر الاعتذار في مجال الحرب والمعارك جاء من شعراء وسموا بالبطولة الفائقة والشجاعة النادرة ممن لهم شهرة حربية ورصيد كبير من البطولات وخبرة طويلة في القتال، وكأن بطولتهم أرسخ وأثبت من أن تزعزعها أو تحجبها أمثال هذه الحوادث التافهة التي كثيراً ما نسبوا إخفاقهم فيها إلى الحظ أو القدر أو عدم تكافؤ القوة وتفوق الخصم عليهم أو أنهم أخذوا على حين غرة وغفلةٍ من أمرهم ولم يكونوا مستعدين أو لأي شيء آخر خارج عن إرادتهم[٥١].

وقد احتفظ الشعر العربي بصور عديدة من صور الفرار كشف فيها الشعراء الأسباب التي أوقعتهم في هذا المأزق غير المحمودة الذي رأوا فيه أنه خلاصومفترج لهم من الموت أو الأسر فمن ذلك فرار الحارث بن وعلة الجرمي من معركة يوم الكلاب الثاني وكان فيه أول الفارين وقد صور فراره بأنه إنجاز كبير في منتهى الشجاعة والبطولة من خلال صور فنية تصلح لوصف المنتصرين لا المهزومين مازجاً هذه الصور بشيء من الطرافة بحيث غدت أقرب إلى التندر والفكاهة وروح السخرية فيتحدث عن فراره ويسوغه بشدة وقع ذلك اليوم على قومه مما حصل لهم من قتلٍ جماعي مخيف حزَّت فيه دوابرهم ولم يبق لهم أثراً، وأن بني تميم لم تأخذهم فيهم رحمة ولا هوادة ففر بطريقةٍ غير مسبوقةٍ متفرداً في سرعته فكأنه نسر حط من السماء على فريسته وكان حريصاً على أن لا يقتل أو يمسك به ويقع أسيراً لدى قوم لا يملكون

قوتهم فكيف الحال به، فسوف يعاني الجوع لديهم، وعذره في الفرار وما هون عليه أن الهروب كان جماعياً ،فكأن قومهم في فرارهم نعام تطارده الخيول لاصطياده وكانت هول الموقف كفيلاً أن ينسي الإنسان كل من يعرفه ويذهله عن غيره ولا يلتفت إلا إلى نفسه فقط، فقد تخلى عن صلة الرحم التي تربطه بالنهدي الذي طلب منه مساعدته على الفرار بحمله معه تحت وطأة مطاردة الخيل لهم بشكلٍ جماعي مما أزم الموقف وزاد في شدته وثقله عليه، يقول[٥٢] :

فدى لكما رجلي أمـــــي وخالتي غـــداة الكلاب إذ تحز الدوابـــر

نجوة نجاء لم يـــر الناس مثلـــه كأنَّـــــي عقاب عند تيمن كاسر

خداريـــة سعفـــاء لبـــد ريشـــها من الطل يوم ذو أهاضيب ماطر

كأننا وقد حالت خذنـــــة دونـــــنا نعام تـــــلاه فارس متـــواتـــر

فمن يك يرجو في تميـــم هـــوادة فليس لجرم فـــي تميـــم أواصر

ولما سمعت الخيل تدعو مقاعساً تطالعني من ثغـرة النـحر جـائر

فإن أستطع لا تلتبس بي مقاعس ولا يرنـــي مبداهم والمـــحاضر

ولا تكن لـــــي حـــدادة مضريـــة إذا ما غدت قوة العيـــال تبـادر

يقول لـــي النهدي إنك مـردفـــي وكيف رداف الفـل أمـــــك عابر

يذكرني بالرحـــم بيني وبينـــــهم وقد كـــان فـــي نهدٍ وجرم تدابـر

ولما رأيـت الخـــــيل تترأثائـــجا علمت بأن الـــيوم أحمـس فاجـر

واعتذر مالك بن خالد الخناعي عن فراره متعللا بهزيمة قومه ، فلما رأى قومه وهم هزومون في مضائق الأودية وقد مزقت أشجار الطلح والظرفاء ثيابهم، تشمر وجد في الهرب كالبكر بعد أن تيقن من أن من يمسك به سوف يقتل ويخلف الحسرة والألم

لأهله أو يقع أسيراً فيعاني الصعاب والجوع والذل، لذا كان قراره الفرار وكان في هروبه أسرع من النعامة الرشيقة طلباً للنجاة من الموت من أعدائه .

إن تقدير الموقف والخروج بنتيجة أن لا طاقة له على الصمود والبقاء في أرض المعركة خوفاً في الوقوع في أحد الأمرين اقتضت الحكمة فيه الهرب للنجاة، خاصة أن الفرار كان جماعياً حيث أصيب قومه كلهم بانهيارٍ تام، وهذا الموقف يشابه تماماً ما حصل مع حارث بن وعلة الجرمي، فكأن لسان حال الشاعرين يقول إن هذا التزام بأجماع القبيلة الذي تجسد في الفرار دون اتفاقٍ مسبق، وإن مخالفته تعد خيانةً وتجاوزاً لرأي الجماعة، وبالتالي وجب التنفيذ، يقول[٥٣] :

لما رأيت عدي القوم يسلبـــهم ... طلح الشواجن والظرفـاء والسلم

كفت ثوبي لا ألوي علـــى أحد ... إني شنئت الفتى كالبكر يختطم

وقلت من يثقفوه تبك حـــــنته ... أو يأسروه يجع فيهم وإن طعموا

والله ما هقلة حصاء عن لـها ... جون السراة هزف لحمها زيـــم

كانت بأودية محلٍ فجاد لـــها ... مـــن الربيـــع نجاء نبته ديـــم

فهي شنون قد ابتلت مساربها ... غير السجوف ولكن عظمها زهم

بأسرع الشد مني يوم لا نيـــة ... لمـــــا عرفتهم واهتزت اللـــمم

أما عمرو بن معديكرب الزبيدي فيجتهد في تقديم أعذاره ومسوغاته رداً على زوجته أم الثوير التي لامته على فراره أمام بني عبس، فقد قرعته وأنبته بذلك جاعلة ذلك الفرار سبةً وعيباً يلازمه، فيستهجن منها هذا الموقف ويعتذر بأن المعركة كانت شديدةً عليه وعلى قومه، وأنهم واجهوا أناسا أشداء كأنهم النمور في صولاتهم، وقد حاصروهم على حين غرة ، وأوقعوا بهم تحت سلاحهم في معركة حامية الوطيس ومع ذلك لم يجبن فقد قاتل بشرف وشجاعة فائقة وخرج من المعركة بكرامته مرفوع الهامة

سليم العمامة رمز عزَّته وكبريائه بعد أن خرقت ضرباتهم ترسه، وأن خسران معركةٍ لا يعني الهزيمة المطلقة ومسح تاريخه وماضيه الحافل بالانتصار والبطولة، فكبوة لا تلغي ماله من إرث حافل ورصيدٍ من الانتصارات مشهود، يقول(٥٤) :

أجـــاعلة أم الثـــوير خزايـــــــة علي فراري إذ لقيـــــت بني عبس

لقيت أبا شأسٍ وشأســاً ومالكــاً وقيساً فجاشت من لقائهـــم نفسي

لقونا فضموا جانبينا بصادقٍ من الطعن مثل النار في الحطب اليبس

كأن جلود النمر جيبت عليهـــم إذا جعجعوا بين الإناخـــة والحبس

ولما دخلنا تحت فيء رماحهـــم خبطت بكفي أطلب الأرض باللمس

فأبت سليماً لم تمزق عمامتـــي ولكنهم بالطعن قد خرقوا ترســـــي

وليس يعاب المرء من جبن يومه إذا عرفت عنه الشجاعـــة بالأمس

ويعتذر الفرّار السلميّ عن هروبه دون أن يكون هناك داع لذلك إلا الخوف الشديد من الموت فسرعان ما تشتبك الكتائب ويلتحم الفريقان في القتال تأخذه الرجفة وهم يقصون ظهور بعضهم بعض ويقعون بين قتيل وجريح يجد في الهرب متعذراً بالموت وخسارة حياته متسائلاً ماذا عسى أن ينفعه ندب النساء له، يقول(٥٥) :

وكتـــيبةٍ لبستـــها بكـــــتيبـــةٍ حتى إذا التبست أملت بها يدي

وتركتهم تقص الرماح ظهورهـم من بيـــن مقتـــولٍ وآخر مسند

هل ينفعنَّ أن تقـــول نساؤهـم وقتلت دون رجـــالها لا تـبعد

واعتذر الأعلم الهذلي عن فراره من أمام خصومه ومطالبيه ، ويصور جزعه وخوفه وما تلبسه من حالٍ سيئةٍ إذ لم يتمكن من الوقوف إلى جانب صاحبه والدفاع عنه أو حتى وداعه أمام المهاجمين الذين كأنهم السحاب الجارف في اندفاعهم نحوهم

مصوراً هالة مطارديه الذين كأنهم الحمر الوحشية السريعة، وعذيره من الفرار الخوف الشديد على حياته لئلا يصبح صيداً وفريسةً لسيوفهم ويقع طعاماً للضباع والذئاب والثعالب والطيور الجائعة التي ستنزع جلده وتأكله، يقول[٥٦] :

لما رأيت القــوم بالـــــــ علياء دون قدى المناصب
وفريت من فــزعٍ فـــــلا أرمـــي ولا ودعـت صاحب
ويغرون صاحبهـم بنـــــا جهـــداً وأغرى غـير كاذب
أغرى أبـــا وهـب ليـــع جزهم ومـــدوا بالحـلائـب
مدّ المجلجـل ذي الغمـــا ء إذا يـــراح مـــن الجنائب
وخشيت وقـع ضريبـــــةٍ قد جربـــت كـــل التـجارب
فأكون صيـــدهم بـــهـــا وأصير للضبـــــع السواغب
جزراً وللطـير المـــــــري ة والذئـــــــاب و الثعالـــب
ينزعن جلد المـــرء نـــــز ع القـــين أخلاق المذاهب

كما يعتذر كلحبة القرني عن إفلات حزيمة بن طارق التغلبي الذي أغار على قومه وتمكن من النجاة ولم يتمكن من مطاردته بعدم قدرة فرسه على المطاردة لأنها قد شربت ماء كثيرا جعلها تعرج وأعاقها عن الجري السريع، فضلا عن ذلك فقد أصابتها العديد من السهام التي أثخنتها بالجراح مما زاد الأمر سوءا، يقول[٥٧] :

فإن تنج منها يا حزيمة بن طارق فقد تركت ما خلف ظهرك بلقعا
ونادى منادي الحـــي أن قد أتيتم وقد شربت ماء المزادة أجمعـا
وقلت لكـــأس ألجميـــها فإنمـــا نزلنـــا مـــن زرود لنفزعـــــا
كأن بليتهـــا وبلـــدة نـــــحرهـــا من النبل كراث الصريم المنزعـا
فأدرك إبقـــاء العـــرادة ظلـــعها وقد جعلتني من حزيمة إصبـعا

أمرتكم أمــري بمنعــرج اللـــوى ولا أمــر للمعصي إلا مضيـــعا

إذا المرء لم يغش الكريهة أوشكت حبال الهوينا بالفتى أن تقطــعا

ويعتذر قبيصة بن النصراني من إحجام اتفق منه وتأخر عن الزحف فأخذ يعلق الأعذار على فرسه التي نفر وحاد عن القصد وتوجه إلى جهة غير التي أرادها وابتعد عن صفوف جماعته في المعركة غصباً عنه لا بإرادته فحصانه لم يستجب لمقصده ولم يفلح في توجيه لجامه فيخاطبه متحسراً على عدم نيله متعة المشاركة مع رفاقه وإن عاقبة ذلك ستكون غير مقبولة وإذا حدث بما حصل معه فلن يصدقه أحد، يقول(٥٨):

ألم تر أنَّ الـــورد عـرد صـــدره وحاد عن الدعوى وضوء البوارق

وأخرجني من فتية لم أرد لـهـــم فراقاً وهم فـــي مـــأزق متضايق

وعض على فأس اللجام وعـزني علـــى أمــره إذ رد أهل الحقائـــق

فقلت لـــه لمـــا بلـوت بـــلاءه وإنَّي بمتع مـــن خلـيل مفـــارق

أحدث من لقيـــت يومـــاً بـلاءه وهم يحسبون أنَّني غيـــر صـادق

ويعتذر عامر بن الطفيل عن هزيمة العامريين وخسارتهم في يوم فيف الريح أمام قبائل بني كعب اليمانيين وقد تمكن شخص اسمه مسهر من غدر عامر واقترب منه على أنه منهم وضربه بالرمح على وجهه ففلق وجنته وقد هب عامر في هذه القصيدة يدافع عن شرفه وشرف قبيلته مذكرا بما لها من الأمجاد والمفاخر والبطولات السابقة التي لن تطمسها خسارة طارئة عارضة معترفا أن الفرار عيب وخزاية ومذلة ولكن إذا كان هناك عذر فلا بأس في ذلك، وعذر العامريين أن المعركة لم تكن متكافئة فأعداد الخصوم فاقت عددهم كثيرا، وعلى الرغم من هذا صبر وكر وقاتل بشجاعة رغم الجراح الثخينة التي أصابته، وفي النهاية ما حصل كان خارج إرادتهم متوعدا بجولات قادمة يحقق فيها ثأر العامريين، يقول(٥٩):

لقد علمت عليا هـــوازن أننـــي أنا الفارس الحامي حقيقة جعفر
وقد علم المزنوق أنِّـــــي أكـــره عشيـــة فيف الريح كر المشهر
إذا ازور من وقع الرماح زجرته وقلت له: ارجع مقبلا غير مدبر
وأنبـــأته أن الفرار خزايـــة على المرء مـــــا لم يبل عذرا فيعـــذر
ألست ترى أرماحهم فـي شـرعا وأنت حصان ماجد العرق فاصبر
أردت لكيمـــا يـــــعلم الله أنَّنـــي صبـــرت أخشى مثل يوم المشـقر
لعمري وما عمري علي بهين لقد شـــان حـر الوجـــه طعنة مسهر
فبئس الفتى إن كنت أعور عاقرا جبانا فمـا عندي لدى كل محضر
وقد علمـــوا أنِّـــي أكر عليـــهم عشية فيف الريـح كـــــر المدور
وما رمت حتى بل صدري ونحـــره نجيع كـــهداب الدمقـس المسير
أقول لنفـــس لا يـــجاد بمثلـــها أقلي المـراح إنَّني غيـــر مقصـــر
فلو كان جمعـــا مثلنا لـــم يبزنا ولكـــن أتتنا أســـرة ذات مفـــخر
أتونـــا بشهران العريضـــة كلـــها وأكلب طرا فـــي جيـــاد الســـنور

وختامًا نرى أن شعر الاعتذار صدر عن أناس تحلو بشجاعة القول في الاعتذار كشجاعتهم في الميدان، فقصدوا باعتذارهم إزاحة ما توهمه الآخرون وأشاعوه عنهم، والتذكير بما عرف منهم في سابق عهدهم وماضيهم من شجاعة وبطولات، والتأكيد على رد الاعتبار في قادم أيامهم.

الخاتمة

في نهاية هذا البحث توصلنا إلى أن المعنى اللغوي والاصطلاحي للاعتذار يدوران حول معاني الانقطاع والمنع والمحو، وكذلك بالنسبة لمعنى الفرار فمعناه الاصطلاحي لصيق بالمعنى اللغوي، كما بينت أنَّ أسباب كثرة الحروب والصراعات في حياة العرب هي إفرازات ونواتج عوامل اقتصادية واجتماعية محضة، وأن العرب لم يكونوا طلاب حرب بل كانوا مكرهين عليها ويقفون متدبرين قبل خوضها .

وأن فرار المقاتلين كان دليلا على حرصهم على الحياة والحرية وعدها مفاخر عند بعضهم لا معايب على الرغم من الأصوات المعارضة له داخل المجتمع القبلي خاصة المرأة، واتخاذ الخصوم من هذا التصرف مادة هجائية، وتوصلت إلى قلة شعر الاعتذار لديهم لتجنبهم القول فيه، واقتصار قوله على الشعراء الذين تحلوا بالشجاعة والجرأة ومن له رصيد وإرث من البطولات والانتصارات، وكانت مضامينه تسويغات عما حصل معهم من إخفاقات ألقوا اللوم فيها على ظروف خارجة عن إرادتهم، وتحمل تذكيرا ببطولاتهم وتحذيرا لخصومهم في قادم أيامهم .

الهوامش

(١) – ينظر: المصباح المنير٢٩٨. ومجمع البحرين ١١٨١\٢.

(٢) – ينظر لسان العرب مادة عذر. وتاج العروس عذر.

(٣) – الفروق اللغوية ١٤٦.

(٤) – العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ١٨٠\٢ .

(٥) – التعريفات، ٢٩.

(٦) – الحدود والحقائق رسائل الشريف المرتضى، ٢٦٣\٢.

(٧) – الكليات، ٣٠٨ .

(٨) – التوقيف على مهمات التعاريف ، ٥٥ .

(٩) – الصححاح واللسان مادة فرر.

(١٠) – ينظر لسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس مادة فرر.

(١١) – ينظر تهذيب اللغة مادة فرر ولسان العرب مادة فرر .

(١٢) – ينظر الشعر الجاهلي، ٩١– ٩٢

(١٣) – ينظر أثر الصحراء في الشعر الجاهلي، ١٤١.

(١٤) – ينظر الشعر الجاهلي ، ٩٠–٩١ .

(١٥) – شعر الحرب في العصر الجاهلي، ٦٣.

(١٦) – ينظر العقد الفريد ٩٤\١

(١٧) – سورة البقرة، ٢١٦ .

(١٨) – شرح ديوان عنترة، ١٨١ .

(١٩) – شعر عمرو بن معديكرب، ١١٧ .

(٢٠) – شعر عمرو بن معديكرب، ٧١ .

(٢١) – ديوان المعاني، ١ / ١٠٩ .

(٢٢) – مطالعات في علم النفس، ١٦ .

(٢٣) – معجم ما استعجم، ١/ ٣٣٥ .

(٢٤) – ديوان الهذليين، ٢ / ١٦٩ .

(٢٥) – شعر عمرو بن معديكرب، ١٢٩.

(٢٦) – ديوان الهذليين، ١ / ٨٣ .

(٢٧) – ديوان الهذليين، ٣ / ٨٥ .

(٢٨) – ديوان الهذليين، ١٦٨/٢ .

(٢٩) – كتاب شرح أشعار الهذليين، ١ /٣٣٧ – ٣٣٨ .

(٣٠) – كتاب شرح أشعار الهذليين، ١/ ٤٦٤ .

(٣١) – المُحبر، ٤٩٩ .

(٣٢) – الأنوار ومحاسن الأشعار، ١/ ٣٥ .

(٣٣) – تاريخ الطبري، ١ / ٤٧٩ .

(٣٤) – تاريخ الطبري، ١/ ٤٧٩ .

(٣٥) – المحبر،٥٠١ .

(٣٦) – المحبر، ٤٩٦ .

(٣٧) – المُحبر، ٤٩٧– ٤٩٨ .

(٣٨) – شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، ٥ .

(٣٩) – المُحبر، ٥٠٠ .

(٤٠) – شرح ديوان عنترة، ٤٧ .

(٤١) – شرح ديوان عنترة، ٨٩ .

(٤٢) – المفضليات، ٣٤٢ .

(٤٣) – المفضليات، ٣٣٢ .

(٤٤) – ديوان بشر بن أبي خازم، ٢٢–٢٣ .

(٤٥) – ديوان عبيد بن الأبرص، ٥٣ .

(٤٦) – المفضليات، ٣٠٦ .

(٤٧) – المفضليات، ٣٦ .

(٤٨) – ينظر النابغة الذبياني مع دراسة للقصيدة العربية في الجاهلية، ٨٨ .

(٤٩) – ينظر شعر الحرب في العصر الجاهلي، ٢٧٣ . وفي تاريخ الادب الجاهلي، ١١٢ .

(٥٠) – في تاريخ الأدب الجاهلي، ١٦ .

(٥١) – ينظر شعر الحرب في العصر الجاهلي، ٢٧٣ .

(٥٢) – المفضليات، ١٦٥–١٦٦ .

(٥٣) – ديوان الهُذليين، ٣/ ١٢–١٥ .

(٥٤) – شعر عمرو بن معديكرب، ١٢٨–١٢٩ .

(٥٥) – العقد الفريد، ١/ ١٢٥ .

(٥٦) – ديوان الهُذليين، ٧٨/٢ – ٨١ .

(٥٧) – المفضليات، ٣٢– ٣٣ .

(٥٨) – شعراء النصرانية، ٩٤– ٩٥ .

(٥٩) – ديوان عامر بن الطفيل، ١١٦ .

قائمة المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم
٢- أثر الصحراء في الشعر الجاهلي، سعدي ضناوي، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١ ١٩٩٣م .
٣- الأنوار ومحاسن الأشعار، أبو الحسن علي بن المطهر العدوي الشمشاطي، تحقيق صالح مهد العزاوي، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٨٧م.
٤- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرازق الزبيد، الكويت ط٢ دون ت .
٥- تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية ،بيروت ط١ ١٤٧هج.
٦- التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، (ت٨١٦هـ)،حققه وضبطه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية ط١ ١٩٨٣م.
٧- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري الهروي، (ت ٣٧٥هج)، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي ،بيروت ط١ ٢٠٠١م.
٨- التوقيف على مهمات التعاريف، عبد الرؤوف المناوي، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب القاهرة، ط١٩٩٩م.
٩- جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، (٣٢١هج)، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين ط١ ١٩٨٧م .
١٠- الحدود والحقائق رسائل الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي العلوي، دار القرآن الكريم، مطبعة الخيام دون تاريخ .
١١- ديوان بشر بن أبي خازم، تحقيق عزة حسن، ط٣ دمشق ١٩٧٢م .
١٢- ديوان عامر بن الطفيل، تحقيق كرم البستاني، لبنان دار صادر ودار بيروت ١٩٦٣م.
١٣- ديوان عبيد بن الأبرص الأسدي، تحقيق حسين نصار، مصر، مطبعة الباب الحلبي ١٩٥٧م.
١٤- ديوان المعاني، أبو الهلال العسكري، شرحه وضبطه أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٩٩٤م .
١٥- ديوان الهذليين، تحقيق أحمد الزين ومحمود أبو الوفا، دار الكتب المصرية١٩٦٥م.
١٦- الكتاب العربي بيروت ط١١٩٩٢م.
١٧- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، حققه وقدم له د. إحسان عباس، الكويت ١٩٦٢م.
١٨- الشعر الجاهلي، د.محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني بيروت ط٢ ، ١٩٧٣م.
١٩- شعر الحرب في العصر الجاهلي، د. علي الجندي، مطبعة لجنة البيان العربي ط٢ ، ١٩٦٣م

٢٠- شعر عمرو بن معديكرب الزبيدي، جمع وتنسيق مطاع طرابيشي دمشق مجمع اللغة العربية ط٢ ١٩٨٥م.
٢١- اليسوعي، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين ١٨٩٠م.
٢٢-الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (٣٩٣) تحقيق أحمد عبد الغفور عطار دار العلم للملايين بيروت ط٤ ١٩٨٧م.
٢٣- العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي (ت٣٢٨) تحقيق د. محمد مفيد قميحة ،دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط٣٢٠٠٦م.
٢٤-العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت٤٦٣هـ) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل ط٥ ١٩١٨م.
٢٥- الفروق اللغوية، أبو الهلال العسكري، حققه وعلق عليه مجمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة والنشر للتوزيع القاهرة .
٢٦- في تاريخ الأدب الجاهلي، د. علي الجندي، السعودية دار التراث للنشر والتوزيع ط١ ١٩٩١م .
٢٧- القاموس المحيط، مجدي الدين أبو طاهر الفيروزأبادي (ت ٨١٧هج) إشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ط٨ ٢٠٠٥م.
٢٨- كتاب شرح أشعار الهذليين، رواية ابن النحوي والسكري، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ومحمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة القاهرة .
٢٩- الكليات، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، دار الرسالة بيروت.
٣٠- لسان العرب، ابن منظور (ت٧١١) اعتنى بتصحيحه أمين محمد عبدالوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت ،ط٢ ١٩٩٩م.
٣١- المُحبر، أبو جعفر محمد بن حبيب (ت٢٤٥) اعتنى بتصحيحه د. إيلزا لختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة بيروت.
٣٢- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي تحقيق عبد العظيم الشناوي، دار المعارف القاهرة ط٢ .
٣٣- المفضليات، المفضل الضبي، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف ط٦ .
٣٤- مطالعات في علم النفس، د. مصطفى سويف مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٣م.
٣٥- معجم مستعجم من أسماء البلاد والمواضع، الوزير أبو عبيد البكري الأندلسي (ت ٤٨٧) تحقيق وضبط مصطفى السقا، عالم الكتب بيروت، ط٣ ١٩٨٣م.